قافية...

عدنان الصائغ(*)

أخذتُ الحياةَ
على محملِ الجدِّ
– حيناً –
فأتعبني حالُها

رأيتُ بكنهِ اليقين، منازلَها، قُلَّباً

يعلو المنابرَ جُهّالُها
ويكري المحاصيلَ أنذالُها
وينهشُ، في قيلِها قالُها
فغسّلتُ كفي، منها

(*) شاعر من العراق.

ثلاثاً
وأضربتُ عما تزاحمَ سؤَّالها

فما عدتُ أحسبُ
إِنْ شرَّقتني
وإِنْ غربتني
وإِنْ أصعدتني
وإِنْ أنزلتني

فدولابُها لا يقرُّ
– على حالةٍ –
وإِن صَدَقتْ
في عيونِ المغفّلِ آمالُها

لندن ٢٦/٣/٢٠٠٥م

غـربة (١)

مرةً، في القصيدةِ، لمْ نجترحْ وطناً
كان يكفي لكي نتلاقى
مرةً.. كنتِ في لوحةِ المستحيلِ
تسيرين جنبي
فأزدادُ منكِ التصاقا..
مرةً، في المواويلِ

.. أو في العويلْ
مرةً، في الصباح القتيلْ
مرةً، في الرصاصِ الذي أورثَ الدمَ
جيلاً فجيلْ
مرةً، في اخضراركِ..
آخيتُ بين الندى المرِّ،
والسوسنةْ
وملتُ على نهدكِ البضِّ، كي أحضنَهْ
فلمْ أرَ إلاّ ضلوعاً تشدُّ الرحيلْ
.....
.....
كيفَ من بعدِ عشرين عاماً
أعدتِ العراقَ الجميلْ
أعدتِ العراق
أعدتِ النخيلَ،
الضفافَ التي سامرتنا
الأغاني التي أرقتنا
فكنتِ أشفَّ وصالاً
..... وكنتُ أشدَّ احتراقا
.....
مرةً..
مرةً...
ربما، يلتقي العمرُ
في صدفةٍ
آهِ... – يا غربتي –
فيذوبُ عناقا

لندن – ديوان الكوفة ٢١/٧/٢٠٠٤م

* * *

غـربة (٢)

مطرٌ بلندنَ . . يعبر المارون ليلي، غير ملتفتين للجرح الذي خلف الجروحِ ينزُّ من خمسـين عاماً . هل أقولُ تعبتُ من نوحِ الحمامِ على غصوني جردتها الطائراتُ من اخضرارِ قصيدة؟ ماذا يقولُ الشعرُ في هذا الزمانِ؟! يفصّلون مقاسَهُ بالنتِّ والشيكاتِ . أو ماذا يقولُ مؤرّخُ السلطانِ بعد الكشفِ عمّا خبّأتْهُ عجيزةُ السلطان من غازٍ وأسلحةٍ مدمّرةٍ رآها الناسُ في التلفاز : حشـدَ مقابرٍ ومنابرٍ . .؟! يا حرفُ، يا نمّامُ، هل تصلُ القصيدةُ حتفَها بالكشفِ؟ هل حتفي سيوصلني إلى معناي؟ يا حلاجُ! . . أين سيوفهم عني؟ تعبتُ من البقاءِ المرِّ . ما في القلبِ من شبقٍ ومن غصصٍ سيكفيني لعمرٍ قادمٍ في جنةٍ نحنُ اخترعناها على حجم اشتهاءاتٍ محرّمة . أيعني الربُّ من تفاحةٍ سقطتْ على حوّاءَ من عطشٍ إلى المعنى، على Newton من علٍل إلى المبنى، لندخلَ دورتين تعاكستْ طرقاتهن إلى التضادِ؟!

فأين مني خطوةٌ تفضي إليَّ . .؟!

وأين مني . .

شارعٌ

يفضي إلى سوهو Soho،

وآخر نحو محيي الدين بن عربي،

لا يتقاطعان،

ولا يتواصلان،

ولا يصلان بي

إلاّ إلى رفٍّ من الكتبِ القديمة عاث فيها العثُّ والأيامُ،

كانا ينبئان بخربةٍ . . .

أو غربةٍ لا تنتهي . . ؟!

. . . . . .

. . . . . .

مطرٌ بلندن . . لا الطريقُ تدلّني للبيتِ، لا جرسٌ يرنُّ بأخرياتِ الليلِ، لا ريحٌ تدقُّ البابَ . . أين أضعتهم؟ أصحابَكَ الماضين بالكلماتِ، يفترشون أحلاماً ولا ينسون أياماً، قضيناها على ضوء الفوانيس الشحيحة . . أين أبصرهم؟ بليفربول!؟ أو ديزفول!؟ ما تركَ الرصاصُ من العتاب، من الصحاب، من انحشاري بين مظروفين. صوت أبي يؤنّبني لأني قد رسبتُ بمادة الكيمياء . .

ما الكيمياء؟ . . هل أمشي؟ تعبتُ . .

فمن؟ متى؟

سيعود بي . .

. . . . . .

. . . . . .

تتمايل الأوراكُ .

كيف أراكِ؟

نهـدٌ جائعٌ ودمي وراءَ نوافذِ الليلِ الطويلِ يئنُّ من دنـفٍ . . عتبتُ، ولا أقولُ تعبتُ من حملِ الصليبِ، ولا أقولُ لَمَنْ سأورثُ هذه الكلماتِ . .

نهـدٌ آخر يحتكُّ بي، فأغافلُ السـنواتِ نحو قصيـدةٍ لمْ تكتملْ، سـتضمنا في حانةٍ، جهشـتْ مراياها لأوكسـترا الحنين، يبثها وترٌ يتيمٌ يستثيرُ بي المسا . بين المطار لكي تطيرَ وبين سجنكَ دمعتان، من الأسى . .

دارَ الزمانُ عليهما . . دار الزمانُ . فما نسيتَ وما نسى!

. . . . . .

. . . . .

مطرٌ . . سـراعاً يعبر العشـاقُ والمتسـكعون فلا أرى إلا ظلالي في الطريق تسائل الحاناتِ عمن سـوف تشركهُ المسـاءَ بكأسها وغنائها . فأرى القصيدةَ شـبهَ عاتبة، فأصحبها إلى فنجانـي المعهودِ حتى الفجر. لا فجرٌ يطلُّ وراء قضبان العراق . . فكم يطولُ الليلُ يا ليلَ العراقِ؟ متى يعود المتعبون من المنافي والشـتاتِ!؟ متى أرى أغصان دجلة يستظلُّ بفيئها

العشاقُ؟ هل يومٌ يمرُّ بلا قنابلَ، أو طغاةٍ، أو جنازيرٍ من الغرباء؟

. . . . . .

. . . . . .

هل مطرٌ بلندن؟

هل أسيرُ لآخر المشوار

– يا بغداد –أم يوماً أعود!؟

. . . . . .

. . . . . .

مطرٌ بلندن، يغسلُ الروحَ، الشوارعَ، من سباتِ الثلجِ والصحراء: اقنوماي. لي خمسون عاماً أستظلُّ بغيمةٍ أو خيمةٍ مثقوبة: وطناً ومنفىً. والطريق إليهما، ذات الطريق إلى القصيدةِ. أورثتني فقرَها وعداوة المتشاعرين. أكابدُ ما أكابدُ.. آهِ....

كان الله في عون المكابد قالها ووصالها..

قزْمٌ سيشتمني، ويحسدني (على ماذا؟)، وشعرورٌ يثرُّ غبارَهُ حولي ليحجبني، وبعض مهرجِ أعماهُ نفثُ الحقدِ لا الصهباءُ... أطفئهم، وأشعلهم، بحقدهمُ وأصعدُ غير ملتفتٍ. ورائي العاطلون، ووجهتي شمس القصيدةِ.. آهِ، ما أبهاك يا وطني، ويا شمسَ القصيدةِ..

ظنهم أن يحجبوك بنقعهم – يا بؤسهم – لم يعلموا سقطتْ صروح زعيمهم لمزابل التاريخ وانكشفوا. فما لضجيجهم كصفائحٍ تلهو الرياح بها..

. . . . .

. . . .

مطرٌ بلندنَ، أتعبتني الروحُ لا تدري ولا أدري لأيةِ وجهةٍ تصبو، وأصبو. أستميحُ الله كيف خلقتني من رغبةٍ مجنونة. لم تستشرْني كي أقررَ ما أقرر من حياةٍ سوف أحسوها على غصصٍ. وكيف تحاسبُ المغصوبَ – يا رباهُ – عما اختير. لي قلقي وشكي، كيف طافا بي. هل هما بلواي، أم تقواي، أم قدري؟ تشابكتِ الرياحُ أو النساءُ أو القصيدةُ في دمي. ودمي وضوءُ صلاتهم. كيف استباحوه وراحوا يرقصون على طبولٍ مفسّرٍ أعمى يرى بجمال مخلوقاتهِ أصلَ الغوايةِ.

في موسيقى روحه رجسٌ.

بخمرةِ حبّهِ أثمٌ.

وراحوا يطمسون بهاءَه الأخّاذَ في حجبٍ وأدعيةٍ. وهمْ لم يحجبوا، في الكونِ إلاّ هنَّ، إلاّ خمـرة الروح التي اعتصرتْ يدُ الله الخبيرةُ، كمْ قضى ليكوّرَ الصدرَ اللجين، يسـرّح الخصـلَ الخضيلةَ، نافخـاً من روحهِ فيها وروحـي.. آه، يا رباهُ أجمـل ما خلقتَ من التمازجِ بين هذا الليلِ، والبحرِ – القصيدةِ. هل صحيحٌ أن تسميها – أجلّكَ – عورةً. ماذا تسمينا إذاً؟

ماذا تسمي ذلك التاريخ من عوراتنا، وحروبنا!؟

.....

.....

مطـرٌ بلندنَ، ما الذي يأتي به مطـرٌ بلندنَ، أزرق الخطوات، يمضي بي إلى حانٍ قريبٍ، أكرعُ الأيامَ كأسـاً تلو كأسٍ. سـوف تسألني فتاةٌ شبه سـاهمة: لماذا الحزنُ في الشعراء، كالأشجارِ ينمو، كلما ابتلّتْ سماءٌ أو حكى نايٌ؟! سنقرعُ كأسنا في صحةِ التاريخ، بين تزاحم الكاسـاتِ والقبلاتِ – رأسَ العامِ– رأسي مثقلٌ. لم تأْتك الأخبارُ إلاّ بالفواجعِ. أين من عينيكِ خفق نوارسٍ عبرتْ تُحَيّي صبحَكِ الأندى، تنقّرُ عشـبَ نافذة سـقيناها هنـاكَ على ضفافِ الكـرخ؟! آه، يا ضفافَ الكرخ، يا ذاك البنفسـج كيف لَمْ يذبلْ؟! وكيف على المناضدِ عرّشـت لمساتنا غاباً وكمثرى؟ وكيف تلوّنتْ فرشاتُك، الكلماتُ؟ كيف تتالتِ السـنواتُ، بين الحبِّ، بين الحربِ والمنفى، وبينهما أراكِ: قصيدةً، مهموسةَ الايقاعِ.. تفترشين جذْبَ الروحِ.. يا مطراً يشخبطني على الأوراق، كيف ألمني؟!

– وطناً تناهبهُ الطغاةُ،

أو الغزاةُ،

أو الظلاميون،

أو بعضُ العمائم..

أو فقلْ ما شئتَ!

– شعباً جائعاً وحقوله عاثتْ بها الغربانُ..

أيـن حبيبتي؟ علسـتْ أغانيهـا الحروبُ، فلـمْ تعدْ شـرفاتها مفتوحـةً إلاّ لذكر الموت والترحالِ..

ما فينا سيكفينا،

ويكفينـا بكاءٌ منذ ألفٍ فوق ناصيـة الفراتِ على المضرّجِ بالنبـالِ وبالدموعِ. تعبتُ من تاريخنا، من نفطنا، من لغطنا.

يكفـي وهذا العصرُ، هذا العمـرُ، يلهثُ دون أيِّ هناءةٍ. من ألف عامٍ، آهِ، دعبلُ لمْ تزلْ صلباننا تتبادلُ الأدوارَ والأسبابَ..

والحكّامُ فوق تخوتهم يستورثون، يورّثون التاجَ والألقابَ..

يكفينا ندورُ مع الفراغِ إلى الفراغِ. وما لنا بعد انكشافِ عجيزة السلطان إلاّ الكشف..

يكفينا نسبّح باسم مولانا الولي نهارَنا ومساءَنا.

يكفـي يخـادعُ بعضنا بعضاً بأنّا أمة التاريـخ، لو بلغَ الفطامَ صبيُّنا خـرّتْ له كلُّ الجبابر والعسـاكر.. أيها التاريخ لمْ نفهمْكَ، لمْ نقرأك إلاّ كالأناشيد المقرقعة الحروف نسدُّ فيها ثقبَنا.

.....

يكفي نغطي سوءَنا بنصوصنا.

يكفي نواجهُ عصرنَا بسياسةِ التفخيخِ والتفريخِ،

أو....

بمتاهةِ التفسيرِ والتكفيرِ.

فلتبعدْ مقصَّكَ.. آهِ، هل أفصحتُ!؟

هل مطرٌ يبللني؟

أم الخيباتْ

.....

مطرٌ بلندن...

.....

لندن ١٥/١/٢٠٠٥م

غـربة (٣)

السماءُ رماديةٌ...
هنا..
وروحيَ خضراء..
خضراء
غضّنها أشعلها الوهمُ، والمبتغى
وتلك السماءُ البعيدةُ سخّمها المدفعيون
السوادُ الذي كان خصباً
صارَ سواداً وجدْباً
وما ظلَّ من إرثنا في البلادِ
سوى إرثنا في الحِدادِ
.....
وليسَ لك الآن، مما ترى
أن ترى...
ركنَ حانٍ تواصلُ فيه
القصيدةَ
أو..
شارعاً
تتسكّعُ فيه
مع الذكرياتِ،
وحيداً
وبعضَ نثيث...
.....
.....
ولك الآن، أن تتناسى الذي مرَّ:

المواجعَ والطعناتِ
وتبسمُ للعابرين
تحيّي الزهورَ التي في الحدائق – أعني الصبايا
.....
وتختارُ ليلاً تؤاخيه
نجماً تناجيه
....
.....
....
تمشي
وتمشي
وتمشي
ولا شيء (يوليس)
غير أثيكا، أخيراً
و(بنلوب)
والرحلة الخاسرة

لندن ٣/٣/٢٠٠٥م

غـربة (٤)

موجة،
أو كتابْ

قلّبتني الحياةُ،
وقلّبتها:
غصصاً.....
ورغابْ
أخذتني المدينةُ، لندن...

ما لي
أمرُّ
على
جسرها
فأرى نهرَ دجلة،
مختضباً
والنخيلاتِ مثقلةً بالغيابْ
ولا قمرٌ....
– من ثنايا البيوتِ –
يردُّ لإبن زريق
بريدَ العتابْ؟
ما لي أساءلُ حاناتِها:
– هل لنا جرعةٌ،
عند بغداد،
قبل
احتضان
الترابْ؟!
.....

لندن ٧/٣/٢٠٠٥م